حال السلف في زمن الفتن

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فمن فضل الله تعالى ورحمة الله بنا أن بينَّ لنا السنة العلمية التي عمل به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،والتابعون وأئمة السلف عندما يستجد شيء من الحوادث والفتن لنقتفي أثرهم ، ونسير على نهجهم، لننجو من الوقوع في الفتن ، ويسلم لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودنيانا التي فيها معاشنا ، وآخرتنا التي إليها معادنا ؛ فمن ذلك :

أولاً : الاعتصام بالكتاب وصحيح السنة : قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ)

وقال صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي "

فلا نجاة للأمة من الفتن والشدائد التي حلت بها إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة ، لأن من تمسك بهما نجا ومن تركهما هلك.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال: لما وقع من أمر عثمان ما كان وتكلم الناس في أمره أتيت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر ما المخرج ؟ قال: كتاب الله.

ثانياً: الالتفاف حـول العلـماء

أولئك العلماء الربانيون سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيّروا، وإذا أسْفَر عنها الظلام أبصروا، وصدق الله العظيم القائل : (يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [المجادلة: ١١]. وقال الله - عز وجل -: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)[فاطر: ٢٨]، وقد حدثت في التاريخ الإسلامي فتن ثّبت الله فيها المسلمين بعلمائهم ومن ذلك ما قاله علي بن المديني رحمه الله:" أعز الله الدين بالصديق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة ".

فيا شباب الإَسلام التفوا حول علمائكم فإنهم القدوة ، والمربّون وهم العون لكم بعد الله في هذا الطريق وفي هذه الفتن، فلقد كان السلف الصالح عند تغير الأحوال يلتفون حول علمائهم وسألونهم ويصدرون من رأيهم .

* يقول يُسَيْرُ بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ : شَيَّعْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ حِينَ خَرَجَ ، فَنَزَلَ فِي طَرِيقِ الْقَادِسِيَّةِ ، فَدَخَلَ بُسْتَانًا ، فَقَضَى الْحَاجَةَ ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى جَوْرَبَيْهِ ، ثُمَّ خَرَجَ وَإِنَّ لِحْيَتَهُ لَيَقْطُرُ مِنْهَا الْمَاءُ ، فَقُلْنَا لَهُ : اعْهَدْ إِلَيْنَا ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ وَقَعُوا فِي الْفِتَنِ وَلَا نَدْرِي هَلْ نَلْقَاك أَمْ لَا ، قَالَ : " اتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ " .

* عندما دخل أبو موسى الأشعري المسجد وإذا به يرى أناساً متحلقين في المسجد في كل حلقة واحد يرمون بحصىً معهم كلما رموا بحصاة قالوا: كّبروا الله مائة، فذهب أبو موسى إلى ابن مسعود: فبماذا أمرتهم ؟ فقال أبو موسى: ما قلت لهم شيئاً انتظار أمرك.

وفي فتنة الإمام أحمد مع الواثق ؛ أتى فقهاء بغداد إليه يطلبون منه الأمر بالخروج على "الواثق" وكان يأتي بأعمال كفرية: يقتل العلماء الذين يقولون (القرآن كلام الله، ورؤية الله في الآخرة ثابتة)، كان يقتلهم بيده كما فعل مع أحمد بن نصر. ويسجن من يسجن حتى يموت في سجنه كالإمام البوَيطي رحمه الله، وكأبي نُعَيم رحمه الله ، والإمام أحمد منع من التحديث والتعليم ، ولا يرقى منبراً ،فضلا على التعذيب فقد ضُرِب ضرباً، وأُغشي عليه، ودِيسَ بالأقدام من الجنود ذهاباً وإياباً، وحُمِلَ إلى سجنه، وهو صائم. وأُوذي بعد ذلك ما أوذي.

ولم يأمر بالخروج على الواثق ، وإنما قال للفقهاء: (لا، اتقوا الله ، إنها الفتنة)

قالوا: (يا أبا عبدالله ، وأي فتنة هي أكبر مما نحن فيه **!!**)

قال: (الفتنة العامة: تُقطع السُبُل،و تُهَدَّم الدور، وتُنتهك الأعراض، و تُسلب الأموال، وتُغَلَّق المساجد، ويضيع الدين؛ هي الفتنة العامة)

فما زال يقول لهم: (اتقوا الله واصبروا يَسْلم لكم دينكم) وما زال بهم حتى تبعوا رأيه، ولم يلبث "الواثق" إلا يسيراً حتى مات، وجاء الله بـ "المتوكل" رحمه الله ، فنصر السنة ورفع المحنة، وانقمع الجهمية والمعتزلة والمبتدعة، وأعز اللهُ دينَه.

٣. ما ذكره ابن القيم عن دور شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التثبيت: " وكنا إذا إشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله عنا ".

ثالثا: لــزوم جمــاعة المسلمين وإمامهم

قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً " رواه مسلم

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ثَلاثَةٌ لا تَسألْ عنهُم: رَجُلٌ فارَقَ الجَماعةَ، وعَصى إمامَه، وماتَ عاصيًا" والحديث صحيح

وقال صلى الله عليه وسلم لحذيفة ابن اليمان عندما سأله عن ماذا يفعل إذا أدرك الدعاة الذين على أبواب جهنم ومن بني جلدتنا ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم " متفق عليه

ولما صلى أمير المؤمنين عمان بن عفان رضي الله عنه بالناس في منى أربع ركعات ، وقد ذكر ابن حجركلام العلماء في سبب اجتهاده هذا وكان ابن مسعود يرى القصر ركعتين لكونه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين ، ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكان رضي الله عنه يقول : ليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان كما في البخاري ومسلم ، ومع ذلك صلى مع عثمان في منى أربع ركعات ، فقيل له في ذلك : كيف تصلي أربعا وأنت ترى القصر ركعتين ؟ فقال كلمته الشافية الكافية كما في سنن أبي داود : الخلاف شر .

فهذا دليل على عمق فهم الصحابة رضي الله عنهم في مسائل الخلاف والتي قد تكون سببا في حدوث الفتن .

رابعا : النظر في عواقب الأمور:

ففي زمن الفتن ليس كل مقال يبدو لك حسناً تظهره ولا كل فعل يبدو لك حسناً تفعله، لأن القول أو الفعل زمن الفتنة يترتب عليه أمور، يفهم بعضهم أشياء لا تبلغها عقولهم ويبنون عليها اعتقادات أو أعمالاً أو أقوالاً لا تكون عاقبتها حميدة وسلفنا الصالح أحبوا السلامة في الفتن فسكتوا عن أشياء كثيرة طلباً للسلامة في دينهم ومن ذلك ماقاله أبو هريرة رضي الله عنه كما في البخاري : " حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ"

يقول الإمام القرطبي رحمه الله :" قال علماؤنا : وهذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن ، والنص على أعيان المرتدين ، والمنافقين ، ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى ، والله تعالى أعلم " انتهى.

ولما حدَّث أنس بن مالك زمن الحجاج بحديث قتل الرسول للعرنيين أنكر عليه الحسن البصري التابعي الجليل لأن الحجاج عاث في الدماء، وربما أخذ هذا الحديث وتأوله على صنيعه فكان الواجب كتم الحديث عن الحجاج.

ثامنا: الصـــبر:

يقول الله تعالى: (ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ويقول صلى الله عليه وسلم:"إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟! قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ " والحديث صححه الألباني رحمه الله .

وبالصبر يظهر الفرق بين ذوي العزائم والهمم وبين ذوي الجبن والضعف ولذلك وَعَى السلف الصالح أهمية الصبر عند وقوع الفتن والحوادث وإليك نماذج مْن سيرتهم.

- لما كان الصحابة رضي الله عنهم يعذبون ويفُتنون في صدر الإسلام بمكة كان يمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ويذكرهم بالصبر ومنهم آل ياسر فإذا مر بهم قال: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.
- ويقول الزبير بن عدي قال: دخلنا على أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعت هذا من نبيكم.
- يقول النعمان بن بشير:" إنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتن فأعدوا للبلاء صبراً "
- وعندما واجه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل الفتنة العمياء بخلق القرآن في أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد فصبر وتمسك بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم حتى نصره الله وفرَّج عنه الغمة.

تاسعا : التعوذ بالله من الفتن:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله كثيراً من الفتن كما في مسلم من حديث زيد بن ثابت – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " ، قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " وما كان النبي يتعوذ من الفتن لأنها إذا أتت لا تصيب الظالم وحده وإنما تصيب الجميع. ، ولذلك سلك السلف الصالح مسلك النبي صلى الله عليه وسلم في تعوذه من الفتن ؛ يقول عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ كما في مصنف ابن أبي شيبة ، قَالَ : " لَمَّا تَشَعَّبَ النَّاسُ فِي الطَّعْنِ عَلَى عُثْمَانَ ، قَامَ أَبِي فَصَلَّى مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ نَامَ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : قُمْ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَك مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي أَعَاذَ مِنْهَا عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ ، قَالَ : فَقَامَ فَمَرِضَ فَمَا رُئِيَ خَارِجًا حَتَّى مَاتَ " .

هذا ونسأل الله تعالى أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يعصمنا من شرور المحن، ويميتنا على السنن .

جمعه

محمد بن سليمان المهوس

إمام وخطيب جامع الحمادي بالدمام

في شهر رجب عام ١٤٤٠ هـ